الجزء التاسع والعاشر — المجلد السابع عشر

مجلة المجمع العلمي العربي

ايلول وتشرين الأول سنة ١٩٤٢ — شعبان ورمضان سنة ١٣٦١

في سبيل العربية (١)

من أعظم نعم المدنية الحديثة هذه الآلة التي اطلقنا عليها اسم المذياع ، واطلق عليها العالم اسم الراديو . فقد اصبحنا بعد انتظام امرها نلجأ اليها في كل ما حزبنا من مهم ، ونتخذ منها اداة دعاية في معظم الشؤون البشرية ، ولا يمضي زمن قليل بعد الحرب الحاضرة حتى يصبح المذياع مدرسة مجهزة بأحسن جهاز ، يتلقى منها المستمعات والمستمعون دروس العلم والتهذيب كاملة ، كأنهم في حضرة مدرسة ذات طبقات ثلاث في التعليم يأخذ طالب الاستفادة في كل طبقة ما شاء له غرامه على ايسر حال . ولا شك ان من نعم المذياع على اللغة ان يوحد في المستقبل لهجات البلاد العربية ويقربها من الفصحى ، كما كان لانتشار الصحف ونشر التعليم الابتدائي أثر عظيم في تهذيب لغة التخاطب والتكاتب بهذه اللغة المحبوبة .

ومن اجل هذا عمدت الى المذياع احمله جواب اسئلة ثلاثة ، وجهت اليّ كما وجهت الى غيري ، وقد قصد بها سائلها وهو صاحب مجلة (الحديث) الحلبية خدمة الافكار الصحيحة ونشرها على الملأ ، قال وله الشكر على اقتراحه المفيد : ماهي الكتب التي قرأتموها قراءة كاملة وأفادتكم في ثقافتكم الادبية ؟ وهل تنصحون الأديب الناشئ ان يقرأ الكتب القديمة اولاً ثم الكتب الحديثة ام بالعكس ؟ وما هو الكتاب العربي الوحيد الذي تنصحون الناشئين بتلاوته وباعادة تلاوته أكثر من مرة . وأنا اقول في جوابه ، وأرجو أن اكون اصبت شاكلة الصواب فيه ،

(١) حديث القي في محطة الاذاعة بدمشق .

ومعظمه مما املته التجارب الشخصية ، وللبحث الخاص اثر بالغ في نفس السامع ، وهل كان العلم قبل ان يقيد في الصحف والاسفار الا تحليلاً وتركيباً قام به أفراد ، فلما دون تلقفه الجماعات وصار يطلق عليه اسم العلم .

أقول من الصعب ان اضع احصاء مدققاً في الكتب العربية التي اتممت قراءتها كلها او قرأتها مرات ، وربما كانت الكتب التي قرأتها بالفرنسية والتركية قد وسعت أفق تفكيري ، وافادتني في الثقافة العربية نفسها فعلمتني سذاجة التعبير . قرأت القرآن الكريم على وجوه كثيرة فكنت تارة أتدبره لأرى ما فيه من بلاغة اللفظ والتركيب وجلال المعنى والمبنى ، وطوراً كنت أرتله لآخذ منه الأحكام بهذا الإيجاز وهذا الإعجاز ، وآونة كنت اتصفحه لأدون ما فيه من مواعظ وزواجر ، وحيناً كنت اطالعه لاتفهم قصص الأنبياء والاحداث التاريخية التي سبقت الاسلام ، ومرة أطيل النظر فيه لارى كيف حجاجه للمشركين والمنافقين ؛ وأنظر في براهينه الدامغة على صدق صاحب الدعوة ويسر دينه ، وحرصه على توحيد الخالق وتوحيد صفوف الخلائق ، ومرة اقلبه لأرى فيه الالفاظ السريانية والنبطية والعبرانية والحبشية والقبطية من اخوات العربية ، وأقع على المفردات اليونانية والفارسية وغيرها من اللغات الآرية مما اندمج في العربية كما اندمجت في لغة قريش بواسطة القرآن بعض مفردات خاصة بالقبائل كهذيل وأزد شنوءة وعُمان وتَميم وكِندة وكِنانة وطيّ وجُرْهُم وحِمير وحَضرَموْت وبني حنيفة ولَخم وغسان وثَقيف وقيس عيلان ومَدْين ومُذْحِج وسَعد العشيرة وجُذام والأشعريين واليمن وسبأ وعُذرة وأنمار وهمذان والأوس والخزرج . وكلما قرأته على الوجه الذي اختاره اطيل التفكير في اسلوبه الرائع وفي اسلوب الفصحاء والبلغاء بعده ، وفي طراز عصره في الاداء وبما كان يستعمل فيه من الفاظ عند من انزل اليهم ولا نكاد نفهمه نحن ابناء هذه اللغة التي نتعلمها بالجهد في الدرس والحفظ .

وجملة الأمر فقد تدبرت القرآن كثيراً ولا ازال كل سنة اغتبط بقراءته دفعة واحدة على الأقل ، واستمع لبعض آياته دفعة او دفعتين في اليوم بلسان المذياع المفيد ؛ عدا سماعي له في الصلوات . فتظهر لي كل نوبة دقائق ما خطرت ببالي

آنفاً ، وتنكشف لي حقائق مطربة عجيبة ، ولا عجب فالقرآن كما قالوا لا تفنى عجائبه .

ولا اكتمكم ياسيداتي وياساداتي ان حسرة في قلبي لا أبرح أحسها وهي أني لم أوفق الى استظهار الكتاب العزيز برمته أولّ حياتي ، وندمت ان شغلت نفسي بمحفوظات من الأدب شوهت ملكتي لأول نشأتي . واني لاعتقد ان المصريين ما تفوقوا ببلاغتهم على سائر الشعوب العربية إلا لأن اكثر الخاصة يحفظون القرآن ، وناهيك بأمة يستظهر قبطيها هذا الكتاب الكريم كفعل أسرتي عبيد ودُوُس المحترمتين وغيرهما من غير المسلمين، يحفظه ابناؤهم التماساً لبلاغته، واسترشاداً بأحكامه . وما كان بعض ادباء لبنان وعلمائها في اواخر المئة الثالثة عشرة واوائل المئة الرابعة عشرة على عِرْقٍ من الفصاحة والبلاغة في ألسنتهم وأقلامهم الا لأنهم حفظوا القرآن واستشهدوا به في خطبهم ومقالاتهم . ولعله لا يقل من يستمعون الى القرآن في المذياع كل يوم من غير المسلمين عن مواطنيهم العرب من المسلمين ، يعجبون بنغمته وموسيقاه وبلاغته ورنته وبما يحدث من تأثير في نفس سامعه ، مهما كانت نحلته ، ويتذوقه في الأكثر من درس اللغة العربية سنين قليلة في المدرسة .

حفظت في صباي طائفة من المعلقات السبع وجانباً كبيراً من ديوان المتنبي . وحفظت اشياء من الشعر الذي كنت افهمه للمحدثين كديوان الطغرائي ، وكان معظم النثر الذي حفظته او تلوته لا يخلو من تكلف ، وافادني في تلقف مفردات اللغة كبعض مقامات الحريري ورسائل بديع الزمان الهمذاني ومقاماته ورسائل ابي بكر الخوارزمي ورسائل الصابي ومقامات الزمخشري ومقامات الاصفهاني وكتابي العتبي وابن الأثير صاحب المثل السائر ، وما انجاني من عسلطات هذا النثر المتكلف الا تعلقي بكتب الجاحظ بعد حين ، فكنت اقرأ ما يقع في يدي من رسائله وكتبه . وما فتئت في كل عام أعاود قراءة معظمه ، كما انظر في ابن المقفع وعبد الحميد الكاتب واحمد بن يوسف الكاتب المعروف بابن الداية المصري واحمد بن يوسف الكاتب العراقي وسهل بن هرون ومحمد بن عبد الملك الزيات وابي حيان التوحيدي والصولي والتنوخي وعبد القاهر الجرجاني وابن خلدون . وقد قرأت مقدمة ابن خلدون كثيراً وهي من الكتب التي احب كل حين معاودة قراءتها كالصحيحين

البخاري ومسلم، ونهج البلاغة المنسوب لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وكتاب الخراج لابي يوسف والأموال لابي عبيد القاسم بن سلام والكامل للمبرد والأمالي للقالي، وكتب ابن قتيبة والماوردي والراغب الاصفهاني والغزالي وابن تيمية وابن قيم الجوزية وابن حزم والطبري والمسعودي والدينوري ومسكويه وابن عبد ربه وابن حبان والمزرباني وقدامة والباقلاني والاشعري ويحيى بن عدي وابن هندو وعلي بن عبد العزيز وغيرهم من ارباب الانشاء الشائق .

وانصح للشداة المبتدئين أن يقرؤا من شعر القدماء والمحدثين حماسة ابي تمام وحماسة البحتري ومختارات البارودي، ولا بد ان يخص بالدرس خمسة من دواوين للقدماء كديوان عمر بن ابي ربيعة والبحتري والمتنبي والشريف الرضي وغيرهم وخمسة من دواوين المعاصرين كالبارودي وصبري وشوقي وحافظ والرصافي وغيرهم، ويكرر في قلبه وعلى سمعه بعض ما بقي من تراث كبار المنشئين (راجع كتابي امراء البيان وكتابي رسائل البلغاء) وعلى الناشئ ان يختار الجيد الذي سلست كتابته واستقامت موازين افكاره، وخلص من التكلف ومساجة التعقيد، وحوشي الالفاظ من الكتاب والمؤلفين، ومن اهم ما عليه تصفحه من كتابات المحدثين كتابات من جمعوا الى سلامة التفكير سلامة التعبير .

ولا يجب ان يفوت المتعلم التأدب بأدب من نقلوا من اللغات الاعجمية ورزقوا حظاً من البيان من المجودين في النقل لامتلاكهم ناصية اللغتين المنقول منها والمنقول اليها واهم تراث يتلقفه طالب المدنية العربية تلاوة كتب علماء الجغرافيا من العرب وهي التي نشرها علماء المشرقيات كما نشروا كثيراً من كتب التراجم والطبقات ومنها سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد وطبقات الشعراء للجمحي والشعر والشعراء لابن قتيبة وطبقات القراء لابن الجزري والاشراف للبلاذري ووفيات الاعيان لابن خلكان وطبقات الحكماء للقفطي وطبقات الاطباء لابن ابي اصيبعة وطبقات الأدباء لياقوت والوافي بالوفيات للصفدي وتاريخ الوزراء للصابي وكتاب الكتاب والوزراء للجهشياري والأنساب للسمعاني وتهذيب الاسماء للنووي ومقالات الاسلاميين للأشعري . ومما طبعناه نحن العرب الأغاني للاصفهاني والأمالي للقالي والبيان

والتبيين للجاحظ ويتيمة الدهر للثعالبي والموشح للمرزباني ونقد الشعر لقدامة ونقد النثر المنسوب اليه أيضاً ومعاني الشعر للأشنانداني وأخبار غرناطة للسان الدين والذخيرة لابن بسام وصبح الأعشى للقلقشندي ونهاية الارب للنويري وعيون الاخبار لابن قتيبة وزهر الآداب وذيله للحصري والصناعتين للعسكري ودلائل الاعجاز لعبد القاهر وقلائد العقيان وذيله للفتح بن خاقان وأمالي السيد المرتضى وأمالي الزجاج والعمدة لابن رشيق والمضاف والمنسوب للثعالبي والمزهر للسيوطي والوساطة بين المتنبي وخصومه لعلي بن عبد العزيز الى غير ذلك من الممتع المفيد .

هذا بعض ما اسعدني الحظ بمطالعته من امهات كتب الادب واللغة والشعر ، وهناك كتب في الدرجة الثالثة او رسائل في موضوع خاص طالعتها ايضاً واستفدت منها ما وسعتني الاستفادة ، والطالب يقع عليها اثناء الدراسة فيتصفحها كما يتصفح المجلات والجرائد ، ويقيد ما يروقه منها في كراريس وجزازات ليأخذ منها حين الحاجة . وأهم ما يتعين على من يريد التبريز في الكتابة ان يقرأ أكثر مما يكتب ويقرأ بترتيل وان يبتعد عن تناول الكتابات الجديدة التي خلت من مسحة البيان فانها تفسد الملكة وتقضي على البلاغة ، ويجب ان يكثر من الخوض في الموضوعات المختلفة منذ بداية امره ، فلا يغفل عن معالجة الكتابة في الرسائل الخاصة والمقالات العامة والخطب والمحاضرات . وعليه ان يقرأ ما يكتب على من يلاحظ انه عارف بهذا الفن ويقبل ملاحظاته ان كانت سديدة . وبعرض كلامه على العارفين تظهر له أمور ما كانت تمر في خاطره ، ولا يبادر الى النشر حالا ولا يتنطع فيتأخر عن النشر كثيراً توهمه نفسه ان الاتقان يكون مع الزمن وان من التهور المبادرة الى عرض بنات افكاره على الجمهور حال كتابتها . فالأولى ان يأخذ حالة بين بين لا يقدم متهوساً متهوراً ولا يتأخر جباناً .

ربما يقول بعض المتحذلقين وعلى هذا فاللغة العربية صعبة جداً يفنى العمر ولا يحسنها الطالب المستفيد وهذا كلام كثيراً ما فاه به بعضهم على غير هدى . فاللغة العربية ليست على خاطبها بأصعب من غيرها من اللغات ولكن كتب اللغات العلمية الكبرى اليوم ان تبادر قبل العربية الى تقريب اصول تلقينها على الطلاب . وهذه النغمة تسمعها في المدارس الأجنبية على الأكثر ، ولو صرف طالب العربية بضع

سنين كما يصرف الطالب سنين في تلقف احدى لغات اوربا لجاء منه رجل تام الأدوات في لغته يتذوق لغتها ولا يصعب عليه معالجة كل موضوعاتها ، ولكن القوم يريدون ان تكون لهم الاولية بدون درس مستديم سابق ، والبيان اليوم لا يوحى ايحاء بل يدرس درساً ويعالج معالجة ، ولا بد من اتخاذ عامة اسباب النجاح الى بلوغ الغاية فيه .

اشرت الى بعض ما يجب على طالب الأدب ان يأخذ نفسه به ، وارى قبل الاتيان على آخر الحديث ان استعين بما كتبه سيد البلغاء ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ثم ما نقله ابو حيان التوحيدي خليفته في طريقته في الانشاء الذي اعجب واطرب . فقد خوف الجاحظ طالب هذه الصناعة من التكلف والتعمل قال : والوجه الضار ان يحفظ الطالب الفاظاً بعينها من كتاب بعينه او من لفظ رجل ثم يود ان يعد لتلك الألفاظ قسمها من المعاني ، فهذا لا يكون الا بخيلا فقيراً او خائفاً مسروقاً ، ولا يكون الا مستكرهاً لالفاظه متكلفاً لمعانيه ، مضطرب التأليف منقطع النظام ، فاذا مر كلامه بنقاد الالفاظ وجهابذة المعاني استخفوا عقله وبهرجوا علمه ، ثم اعلم ان الاستكراه في كل شيء سمج ، وحيث ماوقع فهو مذموم ، وهو في الظرف اسمج وفي البلاغة اقبح . قال والذي تجود به الطبيعة وتعطيه النفس سهواً رهواً مع قلة لفظه وعدد حروف هجائه أحمد أمراً وأحسن موقعاً من القلوب ، وانفع للمستمعين ، من كثير خرج بالكد والعلاج .

ومما قال ايضاً : وليس في الأرض انسان الا وهو يطرب من صوت نفسه ، ويعتريه الغلط في شعره وفي ولده ، الا ان الناس في ذلك على طبقات من الغلط . فمنهم المغرق المغمور ، ومنهم من قد نال من الصواب ونال من الخطأ ومنهم من يكون خطؤه مستوراً لكثرة صوابه ، فما أحسن حاله ما لم يمتحن بالكشف ، ولذلك احتاج العاقل في استحسان كتبه وشعره من التحفظ والتوقي ، ومن اعادة النظر والتهمة ، الى اضعاف ما يحتاج اليه في سائر ذلك .

وروى التوحيدي قال : وليس شيء انفع للمنشئ من سوء الظن بنفسه ، والرجوع الى غيره وان كان دونه في الدرجة وليس في الدنيا مخلوق الا وهو محتاج الى

ثقيف ، والمستعين احسن من المستبد ، ومن تفرد لم يكمل ، ومن شاور لم ينقص ، وقد يستعجم المعنى كما يستعجم اللفظ ، ويشرد اللفظ كما يند المعنى ، وينتثر النظم كما ينتظم النثر ، وينحل المعقد كما يعقد المنحل .

وقال : أحسن الكلام ما رق لفظه ولطف معناه . وتلألأ رونقه ، وقامت صورته بين نظم كأنه نثر ، ونثر كأنه نظم ، يطمع مشهوده بالسمع ، ويمتنع مقصوده على الطبع ، حتى اذا رامه مريم حلق ، واذا حلق اسف ، اعني انه يبعد على المحاول بعنف ، ويقرب من المتناول بلطف .

هذه هي الجهة الأدبية من الموضوع بقيت الجهة المادية وهي تنحصر في كيفية الوصول الى هذه الكتب وهل تبتاع صبرة واحدة ام تشترى بالتدريج ، فالطريقة التي سار عليها اهل البصر ان يقتني طالب العلم كتبه شيئًا فشيئًا لا يدخل خزانته بضعة كتب جديدة حتى يكون أتم قراءة ماسبق له اقتناؤه على ان من الكتب التي اوردناها لا يتأتي لغير الموسع عليهم ابتياعه ، وهي في الاكثر من غرض الخزائن العامة . وكيف كانت الحال فاقتناء الكتب فرض على كل انسان يحاول ان يعد في البشر ، والناس في ديارنا زاهدون في هذه العادة اكثر من كل شيء ، فقد يقتني صاحب اليسار أخس الأشياء ، ولا ترى في داره كتاباً ، وعرفت اناساً يعيشون من معلوماتهم الحقوقية وما سبق لهم ان اشتروا شيئًا من الأسفار ، وليس عندهم من الكتب إلا ما أهداه لهم بعض المؤلفين من كتبهم ولكنهم ما طالعوها . ورأيت أناسًا درسوا في المدارس الثانوية ومنهم في العالية فما أتموا دراستهم وظلوا على المعلومات التي تلقفوها في المدرسة ما زادوا عليها شيئًا في المطالعة ، فما هي الا بضع سنين حتى اصبح حكمهم حكم العامة ضيق عقل وقلة معرفة . والعلم درة دونها كل الدرر لا تصل اليها الا يد من انفق اجمل ساعات حياته في المطالعة والدرس ، ولا ينتهي دور الدراسة الا بانتهاء الحياة . كالتجارب لا يزال المرء منها في ازدياد مادام نفسه يصعد ويهبط .

محمد كرد علي



